

سورة نوح

هي مكية ، وعدد آياتها ثمان وعشرون ، نزلت بعد سورة النحل .
 ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) أنه قال في السورة السابقة : « إِنَّا لَقَادِرُونَ . عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ »

وذكر هنا قصة قوم نوح المشتملة على إغراقهم إلا من قد آمن ، وإبدالهم بمن هم خير منهم ، فكأنها وقعت موقع الاستدلال على تلك الدعوى .

(٢) تواخى مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعود به الكفار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
 وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا (٣) يَنْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
 مُّسَمًّى ، إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) .

المعنى الجملى

أخبر سبحانه أنه أرسل نوحا إلى قومه وأمره أن ينذرهم بأسه قبل حلوله بهم ،
 فقال نوح : يا قوم إنى نذير لكم ، فليكن أن تعبدوا الله وحده وتطيعوه ، فإن فعلتم
 ذلك غفر لكم ذنوبكم ومد في أعماركم ، ودرأ عنكم العذاب ، وأمر الله إذا جاء
 لا يرد ولا يدفع ، فهو العظيم الذى قهر كل شيء ، العزيز الذى دانت لعزته جميع
 الخلق .

الإيضاح

(إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب اليم) .
 أى إنا أرسلنا نوحا رسولا إلى قومه وقلنا له : أنذرهم بأس الله وعذابه ، قبل أن
 يغرقهم الطوفان .

ثم أخبر بأنه لما أمره بذلك امتثل الأمر .

(قال يا قوم إني لكم نذير مبين) أى قال نوح لقومه : إني أنذركم عذاب الله
 فاحذروا أن ينزل بكم على كفركم به .

ثم فصل ما أنذرهم به ، فذكر ثلاثة أشياء :

(١) (أن اعبدوا الله) أى أمركم بمباداة الله وحده ، والأمر بذلك يتناول جميع
 الواجبات والمنهوبات من أفعال القلوب وأفعال الجوارح .
 (٢) (واتقوه) أى وأمركم بتقواه وخوف عذابه ، بأن تتركوا محارمه ،
 وتحتنبوا مآثمه .

(٣) (وأطيعون) أى وانتهوا إلى ما أمركم به واقبلوا نصيحتي لكم .

ولما كلفهم بهذه الثلاثة الأشياء وعدم عليها بشيئين :

(١) (يغفر لكم من ذنوبكم) أى إذا فعلتم ما أمركم به ، وصدقتم ما أرسلتُ
 به إليكم — غفر لكم ذنوبكم وساحمكم فيما فرط منكم من الزلات .

وفي هذا وعد لهم بإزالة مضار الآخرة عنهم ، وأمنهم من مخاوفها .

(٢) (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أى ويمد في أعماركم إلى الأمد الأقصى
 الذى قدره الله إذا آمنوا وأطاعوا وراء ما قدره لهم ، على تقدير بقائهم على
 الكفر والمعصيان .

واستدل العلماء بهذه الآية على أن الطاعة والبر وصلة الرحم يزداد بها في العمر .

حقيقة كما جاء في الحديث : « صلة الرحم تزيد في العمر » ؛ ولا ريب أن التقوى والطاعة تؤثر هذا الأثر ، إذ طهارة الأرواح ، ونقاء الأشباح تطيل العمر ، فيها يحفظ الأيمن ، وتكتسب الفضائل ، وتجلب المنافع المادية .

والخلاصة — إن الأجل إعلان على ما قاله الزمخشري ؛ وعبارته : فقد قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عرهم ألف سنة ، وإن بقوا على كفرهم أهلهم على رأس تسعمائة سنة ؛ ف قيل لهم آمنوا : يؤخركم إلى أجل مسمى ، أى إلى وقت سماه الله وضر به أمداً تفننون إليه ، وهو الوقت الأطول ، وهو تمام الألف اه .

ثم أخبر أنه إذا انقضى ذلك الأجل الأطول فلا بد من الموت فقال :

(إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) أى إن أجل الله الذى كتبه على خلقه فى أم الكتاب إذا جاء لا يؤخر عن ميقاته لو كنتم من أهل العلم ، لكنكم لتستم من أهله ، ولذا لم تسارعوا إلى العمل بما أمركم به .

وفى قوله لو كنتم تعلمون : زجر لهم عن حب الدنيا والتمالك عليها ، والإعراض عن أوامر الدين ونواهيه ، وكأنهم قد بلغ بهم الأمر إلى أنهم شاكون فى الموت .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) بَالَكُمْ لَأَتْرُجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠).

شرح المفردات

ليلا ونهارا : أى دائما ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم : أى سدوا مسامعهم ، استعشوا ثيابهم : أى تغطوا بها لئلا يرونى كراهة النظر إلى ، السماء : أى المطر كما جاء فى قوله :

إذا نزل السماء بأرض قوم فحلبوا حينما نزل السماء

مدرارا : أى متتابعا ، جنات : أى بساتين ، ترجون : أى تخافون ، وقارا : أى عظمة وإجلالا ، أطوارا : واحدها طور وهو الحال والهَيْئَة ، فطورا نطفة ، وطورا علقة ، وطورا عظاما ، ثم تكسى العظام لحما ، ثم تنشأ خلقا آخر ، طباقا : أى بعضها فوق بعض ، بساطا : أى منبسطة تتقلبون فيها ، فجاجا : أى واسعة ، واحدها فجاج ، وهو الطريق الواسع قاله الفراء وغيره .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن نوحا أمر أن يندرج قومه قبل أن يجل بهم بأس ربهم ، وعظيم بطشه ، وأنه لى نداءه ، فأندرجهم وأمرهم بتقواه وطاعته ، لينفرد ذنوبهم ، ويمد في أعمارهم — أردف ذلك بمناجاته لربه وشكواه إليه ، أنه أندرج بما أمره به ، فعصوه وردوا عليه ما أتاهم به من عنده ، ولم يزدحم دعاؤه إلا إداراً عنه ، وهر بآمنه ، وأنه كان يدعوم تارة جهرة ، وتارة سرا ، وأمرهم أن يطلبوا من ربهم

مغفرة ذنوبهم ، ليرسل المطر عليهم ، ويعدم بالأموال والبنين ، ويجعل لهم الجنات والأنهار ، ثم نبههم إلى عظمته تعالى ، وواسع قدرته ، ولفت أنظارهم إلى خلقه تعالى لهم أطواراً ، وخلقهم للسموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجاً ، وجعل الأرض كالبساط يتنقلون فيها من وادٍ إلى وادٍ ، ومن قطر إلى قطر .

الإيضاح

(قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدحم دعائي إلا فراراً) أي قال رب إني أنذرت قومي ولم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالاً للأمر ، وكلما دعوتهم ليقربوا من الحق فرّوا منه ، وحادوا عنه .

ثم أخبر عن أحوال أخرى لهم تدل على الفظاظة وجفاء الطبع فقال :

(وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً) أي وإني كلما دعوتهم إلى الإقرار بوحداانيتك ، والعمل لطاعتك ، والبراءة من عبادة كل ماسواك ، لتغفر لهم ذنوبهم — سدّوا مسامعهم حتى لا يسموا دعائي ، ونغضّوا بئسابهم كراهة النظر إلىّ ، وأكبّوا على الكفر والمعاصي ، وتعاظموا عن الإذعان للحق ، وقبول مادعوتهم إليه من النصح .

ثم بين أنه ماترك وسيلة في الدعوة إلا فعلها فقال :

(ثم إني دعوتهم جهاراً . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً) أي ثم إني كنت أسرّ لهم بالدعوة تارة ، وأجهر لهم بها تارة أخرى ، وطورا كنت أجمع بين الإعلان والإسرار .

والخلاصة — إنه عليه الصلاة والسلام لم يترك سبيلاً للدعوة إلا فعلها ، فاستعمل طرقاً ثلاثة :

(١) بدأهم بالمناجحة في السر ، فاملوه بما ذكر في الآية من سدّ الآذان

والاستنشاء بالثياب ، والإصرار على الكفر ، والاستعظام عن سماع الدعوة .

(٢) جاهرهم بالدعوة ، وأعلنهم على وجه ظاهر لا خفاء فيه .

(٣) جمع بين الإعلان والإصرار .

ثم بين ما كان يقول لهم فقال :

(فقلت استغفروا ربكم) أى فقلت لهم : سلوا ربكم غفران ذنوبكم ، وتوبوا

إليه من كفركم وعبادة ماسواه من الآلهة ، ووحده وأخلصوا له العبادة .

(إنه كان غفارا) لذنوب من أناب إليه وتاب منها ، متى صدقت العزيمة ،

وخلصت النية ، وصحت التوبة ، فضلا منه وجودا ، وإن كانت كزبد البحر .

ولما كان الإنسان مجبولا على محبة الخيرات العاجلة كما قال : « وَأُخْرَى

تُحِبُّونَهَا نَصَرْنَا مِنَ اللَّهِ وَفَتَحَ قَرِيبٌ » لاجرم أعلمهم أن إيمانهم بالله يجمع لهم إلى

الحظ الأوفر فى الآخرة ، الخصب والغنى وكثرة الأولاد فى الدنيا ، ومن ثم وعدهم

بخمسة أشياء :

(١) (يرسل السماء عليكم مدرارا) أى يرسل المطر عليكم متتابعا ، فتزرعون

ما تحبون ، ويكثر الخصب والغلات النافعة لكم فى معاشكم ، من حبوب وثمار ،

وتحدث لكم طمأنينة وأمن وراحة لتوافر ما تشتهون ، مما هو سبب السعادة والهدى .

(٢) (ويعدكم بأموال) أى ويكثر لكم الأموال والخيرات على سائر ضرورياتها

واختلاف ألوانها .

(٣) (وبنين) أى ويكثر لكم الأولاد ؛ فقد ثبت لدى علماء الاجتماع أن

النسل لا يكثر فى أمة إلا إذا استتب فيها الأمن ، وارتفع منها الظلم ، وساد العدل

بين الأفراد ، وتوافرت لهم وسائل الرزق .

وأصدق شاهد على هذا الأمة المصرية ، فقد كانت فى عصر المماليك فى القرن

السابع عشر الميلادى ، أيام الظلم والعسف والجبروت ، فى فقر وضنك ، وسلب

ونهب ، فتدهور عدد سكانها حتى بلغ الثلاثة ملايين .

ولما اعتلى عرش مصر « محمد علي » رأس الأسرة المالكة في مصر في أوائل القرن الثامن عشر ، وساس البلاد بحكمته ، وسعى جهد طاقته في تنظيم مرافقها من زراعة وصناعة ومعارف وعلوم ، تسكاثر النسل وما زال يزيد ، ونهج أبناؤه وحفدته نهجه حتى بلغ عدده في عصرنا الحاضر نحو عشرين مليونا .

(٤) (ويجعل لكم جنات) أي ويوجد لكم بساتين عامرة تأخذون من ثمارها ما به تنتفعون ، ولن يطمع الناس في الفاكهة إلا إذا وجدت لديهم الأقوات ، وكثرت الغلات .

(٥) (ويجعل لكم أنهارا) جارية بها يكثُر الخصب والزرع بمختلف ألوانه وأشكاله .

لا جرم أن الأمة الكثيرة البساتين والمزارع ، يعمها الرياء ، وتسعد في حياتها الدنيوية .

وعن الحسن أن رجلا شكأ إليه الجذب فقال له : استغفر الله ، وشكأ إليه آخر الفقر وقلة النسل فقال له : استغفر الله ، وشكأ إليه ثالث جفاف بساتينه . فقال له : استغفر الله ، فقال له بعض القوم : أتاك رجال يشكون إليك أنواعا من الحاجة ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فقال : ما قلت من نفسي شيئا ، إنما اعتبرت قول الله عز وجل حكاية عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه : « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » الآية . وبعد أن أدبهم الأدب الخلقى بطلبه منهم تهذيب نفوسهم واتباعهم مكارم الأخلاق ، شرع يؤدبهم الأدب العلمي بدراسة علم التشريح ، وعلم النفس ، ودراسة أحوال العوالم العلوية والسفلية فقال :

(مالكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا) أي مالكم لا تحافون عظمة الله وقد خلقكم على أطوار مختلفة ، فسكنتم نطفة في الأرحام ، ثم علقه ، ثم مضغه ، ثم عظاما ، ثم كسا عظامكم لحما ، ثم أنشأكم خلقا آخر ، فتمبارك الله أحسن الخالقين .

وقد ذكرت هذه الأطوار في سور كثيرة كسورة آل عمران وسورة المؤمنين وغيرها .

وبعد أن ذكر النظر في الأنفس أتبعه بالنظر في العالم العلوى والسفلى فقال :

(ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً) أى ألم تروا كيف خلق السموات متطابقة بعضها فوق بعض ، وجعل للقمر بروجاً ومنازل وفارت نوره ، فجعله يزداد حيناً حتى يتناهى ، ثم يبتدىء ينقص حتى يستسر ليدل ذلك على مضيّ الشهور والأعوام ، وجعل الشمس كالسراج يزيل ظلمة الليل .

ونحو الآية قوله : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِيَتَلَمَّؤْا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

(والله أنبتكم من الأرض نباتاً) أى والله أنبت أباكم آدم من الأرض كما قال : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » .

وقد يكون المعنى — إنه أنبت كل البشر من الأرض ، لأنه خلقهم من النطف وهى متوالدة من الأغذية المتوالدة من النبات المتوالدة من الأرض .

وجعلهم نباتاً لأنهم ينمون كما ينمو النبات ويلدون ويموتون ، وأيديهم وأرجلهم كأفروع النبات : وعروقهم المتشعبة فى الجسم والتي يجرى فيها الدم وينتشر فى الأطراف ، تشبه ما فى الشجر ، وأجوانهم مختلفة كأحوال النبات ، فمنه الحلوى والمرّ والطيب والخبيث ، واستعدادهم مختلف كاستعداد النبات ، فلكل امرئ خاصة كما لكل نوع من النبات خاصة .

(ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً) أى ثم يعيدكم فى الأرض كما كنتم تراباً ، ويخرجكم منها متى شاء أحياء كما كنتم بشرّاً .

ثم أخذ يعدد النعم التي أعدها للإنسان في الأرض ، وذكر أن الأرض مهيأة مسخرة لأمره كتسخير البساط للرجل يتقلب عليه كما يشاء ، ويظهر مواهبه لاستخراج ما في بطنها من المعادن المختلفة ، وخيراتها المنوعة فقال :

(والله جعل لكم الأرض بساطا) أى والله بسط لكم الأرض ومهددا ، وثبتها بالجبال الراسيات .

ثم بين حكمة هذا فقال :

(لتسلكوا منها سبلا فحاجا) أى لتستقروا عليها ، وتسلكوا فيها ، أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها المختلفة .

وقصارى ما سلف — إن نوحا عليه السلام أمر قومه بالنظر في علوم الأنفس والآفاق من معدن ونبات وحيوان وإنسان وسما وأرض وشموس وأقمار .

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَنْزِلُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَنْزِلُنَّ وِدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) .

شرح المفردات

الخسار : الخسران ، كبارا : أى كبيرا عظيما ، لانذرن : أى لاتتركن ، وِدًا وسُوعًا ويعُوثَ ويعُوقَ ونسرا : أسماء أصنام كانوا يعبدونها :

المعنى الجملى

أخبر عن نوح أنه أعلم ربه وهو العليم الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة أنه مع ما استعمله من الوسائل والأساليب المختلفة المشتملة على الترغيب طورا والترهيب طورا

آخر - كذبوه وعصوه واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر ربه ، ومُتَّع بمال وولد وقالوا: لا نترك آلهتنا التي عبدناها نحن وآبائنا من قبل ، ولا عجب فقد أضلت الأصنام خلقا كثيرا ، فدعا عليهم : رب اخذل هؤلاء القوم الظالمين ولا تزدهم إلا ضلالا .

الإيضاح

(قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا) أى قال نوح : رب إنهم عصوني فيما أمرتهم به ، وأنكروا ما دعوتهم إليه ، واتبعوا رؤسائهم الذين بطروا بأموالهم ، واغترقوا بأولادهم ، فكان ذلك زيادة فى خسارتهم وخروجنا عن محجة الصواب ، وبعدا من رحمة الله .

(ومكروا مكرا كبيرا) أى مكرا كبيرا ، فاحتالوا فى الدين ، وصدّوا الناس عنه بأساليب شتى ، وأغروهم بأذى نوح عليه السلام .

(وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعا ولا يعوث ولا يعوق ونسرا) أى وقال بعضهم لبعض : لا تتركوا عبادة آلهتكم وتعبدوا رب نوح ، ولا سوا هذه الأصنام التي هى أكبر المعبودات وأعظمها .

وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب فيما بعد . أخرج البخارى وابن المنذر وابن

مردويه عن ابن عباس قال : صارت هذه الأوثان فى العرب بعد فكان :

وَدَّ : لَكَلْب .

سواع : هُدَيْل .

يعوث : لَعُطِيف بِالْجُرْفِ عِنْدَ سَبَأ .

يعوق : لَهْمَدَان .

نسرا : لِحَيْرِ آلِ ذِي السُّكَلَعِ .

وهناك أصنام أخرى لأقوام آخرين :

- اللات : لتثقيف بالطائف .
العزى : لسليم وغطفان وجشم .
مناة : لخزاعة بقديد .
أساف : لأهل مكة .
ناثلة : « »
هبل : « » وهو أكبر الأصنام وأعظمها عندهم ومن ثم كان يوضع فوق الكعبة .

وليس المراد أن أعيان هذه الأصنام صارت إليهم ، بل المراد أنهم أخذوا هذه الأسماء وسموا بها أصنامهم .

(وقد أضلوا كثيرا) أى وقد ضل بعبادة هذه الأصنام التي استحدثت على صور هؤلاء النفر ، كثير من الناس ، فقد استمرت عبادتها قرونا كثيرة كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام فى دعائه : « وَاجْتُنِبْنِي وَابْنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ . رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّانِ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ » .

ثم دعا على قومه ليردهم وعنادهم فقال :

(ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) أى ولا تزد الظالمين لكفرهم بآياتك إلا ضللا وطبعاً على قلوبهم حتى لا يهتدوا إلى حق ، ولا يصلوا إلى رشد .

وقصارى ما قاله عليه الصلاة والسلام — أن دعا عليهم بالخذلان ، وأن دعا لنفسه بالنصر وظهور دينه كما جاء فى قوله : « رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ » .

مَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ

دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا
كُفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨) .

شرح المفردات

مما خطيئاتهم : أى من أجل ذنوبهم وآثامهم ، أغرقوا : أى بالطوفان ، نارًا :
أى عذابا فى القبر ، ديارًا : أى أحدا ، تبارا . أى هلاكًا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقالة نوح وشكواه إليه - أردفه بما جازاهم به من الفرق
والعذاب ، وأنهم لم يجدوا من يذفهم عنهم ، ثم أخبر بدعاء نوح على قومه ، وعلل هذا
بأنهم يضلون الناس وأنهم لو نسألوا لم يلدوا إلا الكفرة الفجرة ، ثم دعا لنفسه ولوالديه
ولمن دخل سفينته من المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة ، ودعا على قومه بالتبار والهلاك .

الإيضاح

(مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارًا ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارًا) أى من
أجل معاصيهم وذنوبهم أغرقهم الله بالطوفان ، وسيعذبهم فى قبورهم ، ولا يجدون
من آلهتهم أنصارًا ولا أعوانا يذفعون عنهم ما كتب عليهم ، وبذا ضل سعيهم ،
وخاب فالهم .

(وقال نوح رب لا تدر على الأرض من الكافرين ديارًا) أى وقال نوح :
رب لا تدع على وجه الأرض منهم أحدا .

ثم بين علة هذا الدعاء بشيئين :

(١) (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك) أى إنك إن أبقيت منهم أحدا أضلوا عبادك الذين آمنوا بك .

(٢) (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) أى وإنهم لا يلدون إلا الكفرة الفجرة . وقد كان دعاؤه عليهم بعد خبرته لهم ، وتمرسه بأحوالهم ، ومكثه بين ظهرانيهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

روى أن الرجل منهم كان ينطلق بابنه إليه ويقول له : احذر هذا فإنه كذاب ، وإن أبى أوصانى بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك . وبعد أن دعا على الكفار ، دعا لنفسه ولأبويه وللمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة فقال : (رب اغفر لى ولوالدىّ ولمن دخل بيتى مؤمنا والمؤمنين والمؤمنات) أى رب استر على ذنوبى وعلى والدىّ وعلى من دخل مسجدى ومصلاى مصدقا بنبوّتى . وبما فرضته علىّ ، وعلى المصدّقين بوحدانيتك ، والمصدقات بذلك من كل أمة إلى يوم القيامة .

ثم أعاد الدعاء على الكافرين مرة أخرى لغيظه منهم فقال :

(ولا تزد الظالمين إلا تبارا) أى ولا تزد الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بك إلا خسرابا وبُعدًا من رحمتك .

وصلّى ربنا على محمد وآله ، واغفر لى ولوالدىّ والمؤمنين والمؤمنات .

مقاصد هذه السورة

اشتملت هذه السورة على مقصدين :

(١) دعوة نوح قومه إلى الإيمان وقد حوت :

(أ) طلب تركهم للذنوب ، وأنهم إذا فعلوا ذلك أكثر الله لهم المال والبنين .

(ب) النظر في خلق السموات والأرض والأنهار والبحار .

(ج) النظر في خلق الإنسان وأنه يُخلق في الأرض كما يُخلق النبات ، وأن

الأرض مسخرة له يتصرف فيها كما يشاء .

(٢) كفر قومه وعقابهم في الدنيا والآخرة :